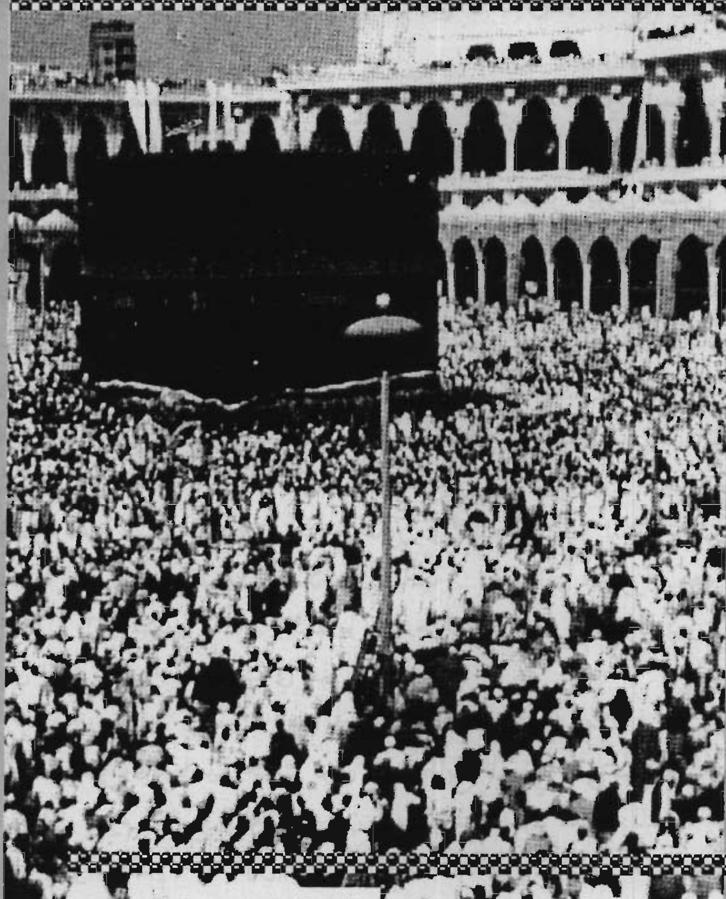
صفحات من التاريخ الاجتم

بقلم الدكتور علي أباحسين

سبق أن استعرضنا بالعرض السريع في عدد سابق نبذة عن أحوالٍ مكةِ الاجتماعية . فوجدنا أن القليل من المؤرخين دونوا طرفاً يسيراً عن التاريخ الاجتماعي في مكة اللهم إلا أن ابن جبير (ت ٦١٤هـ) في رحلته وابن المجاور المتوفى (٦٩٠هـ) وآخرون قد أمدونا مع بعض أصحاب الرحلات بمزيد من النصوص عن حياة المجتمع في مكة في أواخر العصر العباسي . وقد عاش ابن المجاور وابن جبير في العصر الأخير من عمر الدولة العباسية . وكل منهما كشاهد عيان رحل مع قافلة الحج العراقي فوصفها ثم دخل مكة ووصف الأحوال الاجتماعية فيها . لذا حظي العصر العباسي الأخير دون سابقه من العصور بوضوح تلك الأحوال الاجتماعية بفضل ابن جبير فجاء في وصفه للمجتمع المكي ما يغني الباحث إلى حد كبير . أما العصور السابقة فليس فيها إلا اليسير النادر .

...اعي في مكة المكرمة
...أيام العباسيين



الوثيقة ١٣

والباحث في تاريخ الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة خلال القرن الأول الهجري يجد إلى حد كبير علاقة اجتماعية لا سياسية بين الشام ومكة والمدينة . فالذوق العربي كان واضحاً في العهد الأموي والعلاقة متينة بين الشام والحجاز . بينما تجد الطابع الفارسي تارة والتركي تارة أخرى في العادات والتقاليد واللباس والطعام والفنون في العصر العباسي الأول والثاني[١] .

ونظراً لمكانة مكة المكرمة وقدسيتها فقد انعكس ذلك على عادات وتقاليد أهلها . فمثلاً كان أهل مكة يوقدون المصابيح والسرج والشموع في فجاج مكة للمعتمرين والحجاج مخافة تعرضهم للسرقة[٢] .

وبعد موسم الحج تعم الأفراح ويكثر الزوار والتنزه في البساتين كالطائف والزاهر ووادي فاطمة وغيرها[٣] . ويصف المقدسي (٣٧٥هـ) المجتمع في مكة في القرن الرابع الهجري فيقول : قرب مكة تنصب القباب ليلة الفطر ويزين السوق . وإذا صلوا الغداة أقبلت النساء يطفن بالبيت . ولا يرى أحسن من زي أهل مكة في خروجهم إلى الحج[٤] . ويستطرد المقدسي فيصف أخلاق أهل مكة وهم يتحلون بالتعاليم الإسلامية والأخلاق السامية كالأمانة والصدق[٥] . أما ذكر ابن خلدون في مقدمته بأن أخلاق التجار نازلة عن أخلاق الرؤساء . فلعل ذلك يصدق على ما قبل الإسلام أو على التاجر الذي لا يطبق تعاليم القرآن وسنة النبي الكريم عليه الصلاة والتسليم ، أما التاجر الذي يتحلى بالأخلاق الإسلامية القويمة فإن أخلاقه أرفع عن غيره من التجار وبذلك يميل الناس للتعامل معه لصدقه وأمانته ولا يرغبون في التعامل مع البائع الذي لا يتصف بهذه الصفات وغيرها من المزايا الإسلامية السامية . وقال ابن الجوزي وهو يصف موسم الحج في مكة : إن المكيين يأتون بالهدايا كما جرت عادتهم والطبول بين أيديهم ويمضون إلى ديوان الوالي وهذا ما حدث في عام ٥٦٤هـ[٦] .

أما ابن جبير (ت ٦١٤هـ) فيصف احتفالات أهل مكة في القرن السادس الهجري في أواخر الدولة العباسية حيث نرى أثر الطابع الديني على مواسم الأعياد .

ففي اليوم التاسع والعشرين من شهر رجب يفرد البيت للنساء خاصة فيجتمعن من كل أوب وقد تقدم احتفالهن لذلك بأيام كاحتفالهن للمشاهد الكريمة ولم يبق بمكة امرأة إلا دخلت المسجد الحرام ذلك اليوم وطفن وقبلن الحجر واستلمن الأركان مستقلين . وهذا

هو اليوم الذي ينتظرنه من عام إلى عام فهن يرقبنه ارتقاب أشرف الأعياد ويكثرن من التأهب والاستعداد .

وأما حفل (ختم القرآن) فقد شاهده ابن جبير فوصفه بقوله : حضر ختم القرآن القاضي وجماعة من الأشياخ لأحد أبناء أهل مكة فلما فرغوا منها قام الصبي الذي ختم القرآن قام فيهم خطيباً ثم استدعاهم أبو الصبي إلى منزله إلى طعام وحلوى أعدهما وذلك بعد أن ساروا بموكب يقطع طرق مكة(٧) . ويستطرد ابن جبيـر في وصف عادات أهل مكة(٨) .

وفي النصف من شعبان يحتفلون بزيادة ماء زمزم وأنكر ابن جبير ذلك فقال : لم أر زيادة في ماء زمزم في تلك السنة كما يزعمون(٩) .

وفي ليلة النصف من شعبان توقد المشاعل والسرج لأنها ليلة معظمة عند أهل مكة وكذلك في أول ليلة من شهر شوال يسرجون المصابيح والشمع وتوقد السرج في الحرم كله وسطح المسجد الذي بأعلى جبل (أبي قبيس) والناس ما بين طواف وصلاة حتى ما بعد صلاة الصبح(١٠) . في السابع والعشرين من شهر رمضان يشعل أهل مكة المصابيح والشموع وفي المنازل كان الصبيان يعملون كور من القماش يدهنونها بالسليط ويشعلونها في وقت واحد على أسطح منازلهم فيرى بذلك منظر غريب وجميل في نفس الوقت(١١) .

وإذا أهل شهر رجب أمر أمير مكة بضرب الطبول والبوقات إشعاراً بدخول الشهر ثم يخرج في أول يوم منه راكباً ومعه أهل مكة فرساناً ورجالاً على ترتيب عجيب وكلهم يلعبون بالأسلحة بين يديه والرايات والطبول إلى أن ينتهوا إلى الميقات ثم يأخذون بالرجوع على معهود ترتيبهم إلى المسجد الحرام فيطوف الأمير بالبيت والمؤذن الزمزمي بأعلى قبة زمزم يدعو له عند كل شوط فإذا طاف صلى عند الملتزم والمقام وخرج ليسعى راكباً ثم يسير إلى منزله وبذلك يكون قد أنهى العمرة الرجبية . وهذا اليوم عيد عند أهل مكة يلبسون فيه أحسن الثياب والشهر كله أعياد وخاصة السابع والعشرين منه وفيه الإسراء والمعراج حيث يخرج أهل مكة بالهوادج إلى (التنعيم) والمصابيح مشتعلة بجانب الطريق في أباطح مكة ويعودون لإتمام العمرة الأكمية كما يسمونها لأنهم يحرمونها أمام أكمة مسجد عائشة رضي الله عنها على مقربة من المسجد المنسوب للإمام علي كرم الله وجهه(١٢) ولازالت هذه العادة كما نشهدها إلى الآن .

وفي **ليلة هلال شهر شوال** يسرجون المصابيح والسرج . وفي الصباح يلبسون ملابس العيد ويبادرون لصلاة العيد في المسجد الحرام فيبكر الشيبيون لفتح الكعبة وينتظرون أمير مكة وعندما يأتي يطوف بالبيت سبعاً ثم يتقدم الخطيب بين الرايتين السوداوين وهو لابس السواد فيصلي خلف المقام الكريم ثم يصعد المنبر ويخطب وإذا ما فرغ من الخطبة يقبل بعضهم على بعض بالسلام والمصافحة فيدخل بعضهم الكعبة ثم يخرجون للزيارة ومن عادتهم في استهلال الشهور أن يأتي أمير مكة وقواده وقد لبس البياض وتقلد سيفاً فيصلي عند المقام الكريم ركعتين ثم يقبل الحجر الأسود ويطوف وينصرف(١٣) .

ومن أعياد مكة **عيد المولد النبوي الشريف ويوم عاشوراء** وآخر أربعاء من صفر(١٤) .

وفي **شهر الحج** تدق الدبادب بمكة من أول يوم في الشهر إلى يوم الصعود إلى عرفة ودبادب أمير مكة هي نوع من الطبول كانت تستعمل في كثير من المناسبات مثل الأعياد(١٥) ووصف (ابن المجاور) القريب العهد بالتاريخ العباسي فقال : أن في مكة كثير من المجاورين والغرباء وأهل البلدان المختلفة منهم من عشائر وقبائل مختلفة ذوو قناعة وكان أحدهم يبقى على قرص وقليل سمن ثلاثة أيام بلياليها وملبسهم النصافي الرفيع ويتحزم بنصفه الثاني . ولبس نسائهم القنوع والبراقع ومأكولهم السمن واللحم والخبز وأساميهم سالم ومسلم وغانم وغنام وفراج وفارح وقاسم ووثاب وراشد ورشاد وفاضل وفضائل وطالب وواصل وراجح وهاني (فأسماؤهم على وزن فاعل)(١٦) .

ويستطرد ابن المجاور فيقول : وفي مكة الأشراف من نسل الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ وما بقي من أهلها قرشيين وهم رجال سمر لأن جلة مناكحهم من الحبش والنوبة طوال الجثث صحيحين اللغة قليلين المال كثيرين العشائر والقبائل(١٧) .

ويبدو أن تجارة الرقيق كانت رائجة في أواخر العصر العباسي في مكة حيث تجلب الجواري من أفريقية وكن يستخدمن في البيوت كزوجات وقد أدى ذلك إلى ظهور عنصر هجين من القرشيين والأفارقة على حد قول ابن المجاور ولما كانت مكة مركزاً تجارياً فقد دخلها من العشائر والقبائل ومن كل عنصر وجنس ولون واستقروا بها فأصبح سكانها يتكونون من خليط غير متجانس، تربطهم الروابط الروحية وهي رابطة الدين وروابط مادية كالتجارة ونحوها .

وفي (المآتم) يتوارد الناس بعد أن تفيض الروح إلى بارئها فتأتي النسوة ويجدن قصعة على باب القاعة فيها معجون الحنا فيحنين منها إحدى أيديهن ثم يدخلن إلى القاعة معزيات صاحبة المصيبة ثم يجلسن وينصرفن وبعد الدفن يتوارد الرجال إلى أهله معزين ثم ينصرفون لوقتهم[١٨] ومنهم من يعزيهم في المقبرة بعد الدفن مباشرة .

أما (الزواج) في مكة في العصر العباسي فقد اعتاد أهل مكة أن يخطب زيد بنت عمرو في العاشر من ذي الحجة وفي العاشر من محرم يدخل كل واحد منهم في عرسه وبالنظرة والتطهير وقلنا لم ذلك ؟ قالوا لأن كلاً منا يعيش مع الحاج في كل فن من الفنون فإذا رحل الحاج دار الخطب والنكاح على سنة الرسول ﷺ والأفراح والأعراس بين الناس فإذا تزوج رجل من أهل مكة وقطع المهر وأراد الدخول على المرأة يخضب الرجال أيديهم وأرجلهم وتزين ويحضر كل أصدقائه من الأهل والأقارب وبيده قرطاس مشرق مكتوب عليه اسم الآتي مع وزن المبلغ وعدده يقدمه قدام العروس كل على قدر حاله وسعة ماله وكذلك يفعل النساء ويخرج العريس إلى الحرم ويطوف سبعاً ويصلي في مقام إبراهيم ركعتين ويقبل الحجر الأسود ويخرج بالشمع إلى بيت العروس فتجلى عليه ويدخل عليها ويبقى عندها سبعة أيام . ففي اليوم السابع يخرج يضم الطرح الذي طرح له ويدبره رأسمال في يده وعند ذلك يفتح له دكاناً يعيش به ويكون ذلك الطرح ديناً عليه وكل من تزوج من القوم الذين حضروا العرس يرجع يرد إليهم الذي أخذ إلى كل واحد من القوم مثل الذي جاء به إليه أو أزيد منه وكذلك يفعل الآخرون[١٩] .

وهكذا يفعل أهل مكة في العرس أن يعطون (الطرح) في الأفراح والأعراس فإذا أعطت المرأة في عرس رد إليها في عرس مثله — وإن كان في ختان رد إليها في ختان وإن كان في ولادة رد إليها في الولادة ولم تـرد الشيء إلا في الوجـــه الذي كان منه وفيه بعينه[٢٠] .

وكانت حفلات الزواج في غاية البساطة في صدر الإسلام وكان الزواج يومين : يوم الإملاك وهو يوم العقد وفيه يجتمع ذوو الفتاة في ساحة دارهم ويقدم أقارب الفتى حتى إذا التأم جمعهم خطبهم ولي الفتى خطبة رقيقة ثم يرد ولي الفتى في خطبة قصيرة يضمنها الرضاء ثم تنحر الجزر وتمد الموائد ويسمع الغناء في مجالس النساء وتسمى وليمة ذلك اليوم (النقيعة) .

ويوم البناء : وفيه يتبارى العرب في الاحتفالات فيلعبون الرجام ويتسابقون بالخيل ويجلس النساء على النمارق ويودعون الحفل بقولهم (باليمن والبركة على خير طائر)[٢١] .

ويدعو الأهل والأصدقاء رجالاً ونساءً فيجلس الرجال خارج البيت المعد لهم ويقوم النساء فيأكلون جماعات وينصرفون . أما النساء فيدخلن البيت فيجدن على باب القاعة قصعة كبيرة مملوءة بالحنا فتصبغ المرأة منهن إحدى يديها فتدخل وتسلم وتجلس ويتجاذبن أطراف الحديث حتى منتصف الليل ويزفن العروس إلى بعلها ثم يعدن إلى بيوتهن بعد أن يطوقن عنقها بعقود زهر الفل[٢٢] .

ونساء أهل مكة بارعات الحسن فائقات الجمال ذوات صلاح وعفاف وهن يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة[٢٣] .

وكان من عادات المرأة إذا اغتاظت من زوجها تقول له أبرك على أربع فيقول لها بالله عليك لا تفعلي وهي تعني أنها لا تفعل شيئاً من أعمال المنزل .

وكل من المرأة والرجل يستعمل الطيب .

أما (**طعام**) أهل مكة فإنهم يكتفون بالقليل في أيامهم الأولى كعادة العرب فطعامهم لون أو لونين وخير أدمهم اللحم ولكن سكان المدن ومنهم أهل مكة قد أخذوا بالعناية بالطعام والتفنن به أكثر من أهل البوادي ومن أطعمتهم (**الثريد**) وهو الخبز يفت ويبل بالمرق ويوضع فوقه اللحم . و(**الربيكة**) وهي شيء يطبخ من بر وتمر ويعجن بالسمن ولعله يشبه الهريسة أو العصيدة . و(**القديد**) وهو من ألوان الطعام عندهم .

ويحكي المسعودي أنه كان يأتي لمكة ورق التامبتول ليمضغ وأنه في ذلك العصر غلب مضغه على أهل مكة وغيرهم من أهل الحجاز واليمن بدلاً من الطين (**طين خاوة**) .

ومن الأطعمة الشائعة في الحجاز (**الكشكية**) وهي حساء من القمح والشعير وزبد لبن الشاة وربما أضيف إليه اللحم و(**السميذه**) وهي من الخبز الأبيض المصنوع من لباب الدقيق ويعتبر من أغذية الأغنياء .

أما (**الفريك**) فهو طعام يفرك ويلت بالسمن .

و(**الفالوذج**) وهو لباب البر يخلط مع العسل .

وكان الأغنياء يعملون ألواناً من الطعام . وأما الفقراء فاقتصرت أغذيتهم على صنف أو صنفين وشرابهم اللبن أو شراب العسل وحده وكان يدعى (**الحلواء البارد**)[٢٤] .

أما الثلج فلم يكن ميسوراً بمكة مثل بغداد والموصل وقد حمل الثلج للمهدي الخليفة العباسي من الموصل إلى مكة ولم يحمل لخليفة من قبله[٢٥] .

وقال المقدسي : فلا ثلج لأهل مكة ولا جليد ولا فواكه في الشتاء ولا قديد إلا ما يجفف من ذبائح منى[٢٦] .

هذا ما كان في مكة في أيام العباسيين في القرن الرابع الهجري . ومأكولهم اللحم والسمن والخبز[٢٧] .

ويعملون الولائم حين عقد الزواج ومتى صنع أحدهم وليمة يبدأ بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين ويكون أكثر المساكين والمنقطعين بالأفران حيث يطبخ الناس أخبازهم فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله يتبعه المساكين فيعطيهم[٢٨] .

ونقل الملك الظاهر بيبرس في موكب الحج الطعام واللباس والمشموم والمشروب والقدور من فضة ونحاس للطبخ والخضروات والبقول والرياحين في أحواض من خشب تحمل على جمال ورتب الأفران وغيره .

ومن عادة أهل مكة أنهم يتناولون الطعام مرتين في اليوم في الضحوة وبعد صلاة العصر ويفطرون عادة في شهر رمضان في الحرم بعد صلاة المغرب يمدون الموائد[٢٩] .

أما (لباس) أهل مكة فقد تنوع لتنوع سكانها والشائع لبس الأزر . والأزر يلبسونها بلا قميص إلا القليل وأكثر ثيابهم القطن منتعلين لا يقولون بالماطر[٣٠] ويلبسون النصافي الرفيع ويتحزم الرجل بنصفه الثاني ولبس نسائهم القنوع والبراقع[٣١] .

ويلبس القضاة والعلماء العمامة السوداء على قلنسوة طويلة في العصر العباسي الأول ثم صغرت القلانس في العصر العباسي الثاني[٣٢] .

وكان أبو الدرداء يلبس قلنسوة مصرية صغيرة وعليه عمامة قد أرخاها بين كتفيه[٣٣] . ويكثر في لباس المكيين اللون الأبيض والألوان الزاهية الأخرى[٣٤] . ولعل سبب ذلك البيئة الحارة .

وامتاز العصر العباسي بلباس (القباء) وهو يشبه الثوب مفتوح الرقبة ولا يطول إلا إلى الركبة كان يلبسه الخليفة مرصعاً بالجواهر . وانتقل هذا اللباس إلى مكة ولكن بصورة متواضعة ولم يكن يرتدي هذا النوع من اللباس عامة الشعب وإنما يقتصر على أولاد العباسيين وكبار رجال الدولة .

ويلبس العلماء والقضاة العمامة والطيلسان (وهو كساء يتوشح به المشايخ) وكانت قلانيسهم تحت العمامة طويلة مخروطية الشكل . ويلبس العامة إزاراً يشبه الفوطة وقميصاً ويتمنطقون عليه بحزام وتضيف الطبقة الراقية قفطاناً وجبة أو عباءة . أما غير العامة فكانوا يلبسون القلنسوة فقط فوق (كلوته) من الحرير والكلوته أشبه بالكوفية أو الطاقية .

والنساء يلبسن الجلباب الملون والقمصان المشقوقة عند الرقبة ويربطن رؤوسهن بعصابة تزينها الطبقة الراقية ببعض الحلي الثمينة وقد يتصل بالعصابة منديل يسدل على الوجه فيحجبه . ويلبسن الملاءات الفضفاضة وكن يلبسن نوعاً من الحلي مثل الخلاخل والأساور وعرفت فيما بعد ثياب جديدة من الحرير والكتان وأنواع براقة تتلألأ إذا انعكست عليها أشعة الشمس[٣٥] .

وقلت الرغبة في الألوان المصبوغة من الثياب فعم اللون الأبيض وأضاف الكبراء اللون الأسود إلى العباءة والجبة لأنه شعار العباسيين وقد ألزم فيه أصحاب المراتب[٣٦] .

ويلبس الفقراء والزهاد الثياب الغليظة من الصوف فقد لبس سفيان الثوري — الذي قضى جانباً من حياته بمكة — كان يلبس إزاراً غليظاً قـــدر أربعة أذرع ثمنه أربعة دراهم[٣٧] .

وكان أهل مكة يلبسون الخواتم ويتطيبون بماء الخلوق ويدهنون الشعر بالزيوت ويكتحلون[٣٨] .

أما (**وسائط النقل**) المستخدمة في مكة في العصر العباسي فهي الإبل والخيل والبرازين وهي للأغنياء، أما العامة فيركبون البغال والحمير المريسية — نسبة إلى ناحية في صعيد مصر — وقال الأصفهاني : قدم ابن الجامع من مكة على الرشيد وهو يلبس لباس الفقهاء ويركب حماراً مريسياً في زي أهل الحجاز[٣٩] . واشتهرت مكة في (**الأربطة**) وهي الأماكن الاجتماعية لأهل الذكر والفقراء . كما أن بعضها أصبحت لطلبة العلم يقيم فيها الغرباء منهم أولئك الذين يفدون إلى البلد الأمين من غير أهلها ليطلبوا العلم وهذه لاشك من أعمال الخير فهي أماكن للتعارف تضم من كل الناس وعلى كافة المستويات وفيها تعاون وتعارف وتعلم . ويعيش الفقراء مع الفقهاء ولكل أمة عاداتها وتقاليدها المتوارثة .

والأربطة ظاهرة اجتماعية متوارثة فيها عبادة ودرس وذكر، أما إذا تحولت إلى ما يشبه دور العجزة فهي لم تؤد رسالتها أيام كانت أماكن للبحث والمناقشة ومساعدة المساكين والمنقطعين للعبادة في بلد العبادة حيث هيأ الله بعض أهل المال لبناء دور لهم تأويهم وتكفيهم شر التشرد وليتفرغوا للعبادة وطلب العلم في غرف صالحة للسكن دون أن يدفعوا شيئاً . وأحياناً كان لهذه الأربطة من يقوم بخدمتها .

وكان الرباط معروفاً ببغداد كما هو في مكة أنشئ لخدمة طلاب العلم والغرباء .

وللرباط مدلول حربي وفي مفهومه الديني جهاد النفس . وأطلق على ساكني الرباط (الفقراء) لأنهم يعيشون على الوقف والبر والإحسان ومجازاً لأنهم فقراء إلى الله تعالى والواحد منهم فقير(٤٠) .

وورد لفظ (**المرابطة**) في القرآن المجيد من قوله تعالى "يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون"(٤١) ويرادفها مرابطة النفس الأمارة بالسوء والمجاهدة لها وقتال شهواتها كما أصبح معناها انتظار الصلاة بعد الصلاة بقول رسول الله ﷺ : "ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات . قالوا بلى يا رسول الله قال : إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطى إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط" . وبذلك شبه الأفعال الصالحة بالرباط(٤٢) .

ومن الأربطة في مكة أيام العباسيين :

رباط الوقس : بقرب رباط الأخلاطي ويقع في أعالي مكة ووقف في أواخر القرن الثاني الهجري(٤٣) .

رباط السدرة : وكان موقوفاً سنة ٤٠٠ هجرية وهو أقدم رباط ذكر في (تحصيل المرام) ويقع في الجانب الشرقي من المسجد الحرام على يسار الداخل من باب السلام أو باب بني شيبه وموضعه دار القوارير التي بنيت في زمن الرشيد(٤٤) .

رباط الفقاعية : وأوقف سنة ٤٩٢هـ(٤٥) ويقع عند الباب المنفرد في زيادة دار الندوة وكتب في الحجر الذي على بابه وفيه أن قهرمانة المقتدى الخليفة العباسي الذي تولى الخلافة سنة ٤٦٧ وتوفي سنة ٤٨٤ وقفته على المنقطعات الأرامل(٤٦) .

رباط الدمشقية : بالخرامية (الحزامية) وأوقف سنة ٥٢٩هـ وفيه بئر عمرتها زوجة تقي الدين بن صلاح الدين يوسف بن أيوب (صلاح الدين الأيوبي) سنة ٥٨٩هـ(٤٧) .

رباط رامشت : ويقع عند باب الحزورة في الجانب الغربي من المسجد الحرام . رامشت هو الشيخ أبو القاسم إبراهيم بن الحسين الفارسي وأوقفه على جميع الصوفية الرجال دون النساء من سائر العراق وتاريخ وقفه ٥٢٩هـ[٤٨] .

رباط السبتية : وكان موجوداً سنة ٥٢٩هـ وفيه بئر .

ورباط أبي القاسم بن كلامه الطيبي : بالمسعى وأوقف سنة ٥٤٤هـ .

ورباط القبلاني : عند باب المسجد المعروف بباب الجنائز وقفه ٥٧٥هـ ويعرف برباط المراغي ولعله رباط القبلاني المذكور، وقال الفاسي . ورباط قاضي القضاة أبي بكر محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم المراغي الملاصق لرباط السدرة في الجانب الشرقي من المسجد الحرام[٤٩] ورباط أوقفته الشريفة صالحة بنت الأمير محمد الحسني وتاريخ وقفه ٥٧٧هـ ولعلها الخاتون ورباطها معروف اليوم — على حد قول الفاسي — فإن رباط الشريفة فاطمة وليست الشريفة صالحة وهو المعروف برباط ابن محمود والخاتون هي الشريفة فاطمة بنت الأمير أبي ليلى محمد بن أنوشروان الحسني المعروف بابن محمود وكتب في الحجر على بابه وقفه ٥٧٧هـ[٥٠] .

وبقربه **رباط صالحة** : لم يعرف الفاسي من وقفه ولا متى وقف والأرجح أنه رباط صالحة بنت الأمير الحسني وتاريخ وقفه سنة ٥٧٧هـ المذكور .

ورباط أبي سماحة : وسمي كذلك لسكناه به ويقع قرب المجزرة الكبيرة من أعلاها على يمين الذاهب إلى المعلاة وأوقفه الأمير قايماز بن عبد الله سلطان الروم والأرمن أبي الفتح قليج بن أرسلان بن مسعود بن قليج بن أرسلان السلجوقي وأوقفه على المجاورين والمقيمين المنقطعين بمكة من أصحاب الإمام أبي حنيفة سنة ٥٧٨هـ على ما في الحجر الذي على بابه[٥١] .

ورباط العطيفية : أوقفته أم الناصر لدين الله الخليفة العباسي في سنة ٥٧٩هـ كذا في الخشب الذي على يمين بابه، وسمي رباط العطيفية لأن الشريف عطيفة صاحب مكة يسكنه[٥٢] .

ورباط الزنجبيلي : وقبالته مدرسته عند باب العمرة خارج المسجد الحرام بينه وبين المسجد دار وتاريخهما واحد سنة ٥٧٩هـ[٥٣] .

ورباط ابن السوداء : سمي كذلك لسكناه به ويقع عند باب الدربية وأوقفته أم خليل خديجة وأم عيسى مريم ابنتي القائد أبي تامر المبارك بن عبد الله القاسمي، وقفتاه

على الصوفيات الخاليات من الأزواج الشافعيات المذهب وقيل أن تاريخ وقفه سنة ٥٩٠هـ [٥٤] .

وفي أعلا مكة ثلاثة أربطة يقال لها ربط الأخلاطي بعضها على النساء الحنفية من المجاورات والقادمات وبعضها وقف على أهل مدينة أخلاط الصالحين القاصدين البيت الحرام وبعضها وقف سنة ٥٩٠هـ والبعض الآخر في سنة ٥٩١هـ [٥٥] .

ورباط العفيف : ويقال له رباط أبي قتيبة لسكناه به والعفيف هو الذي أوقفه وهو عبد الله بن محمد الأرسوفي عنه وعن موكله وشريكه القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني ٥٧١هـ صاحب المدرسة التي بقربه وقف على الرجال دون النساء على ألا يزيد الساكن في السكن على ثلاث سنين .

ورباط الربيع : وواقفه على موكله الأفضل علي بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب (صلاح الدين الأيوبي) وتاريخ وقفه ٥٩٤هـ .

ورباط ابن الغنام : أوقفه السلطان الملك العادل سلطان الهند محمد بن أبي علي سنة ٦٠٠هـ .

رباط الموفق : بأسفل مكة وقفه القاضي الموفق جمال الدين علي بن عبد الوهاب الإسكندري سنة ٦٠٤هـ على المغاربة وفقراء العرب المتجردين ليس للمتأهلين وفيه بئر .

رباط الخوزي : قرب جدار الحرم الغربي وهو جدار الخوزي بزيادة باب إبراهيم وقفه الأمير قرامر بن محمود بن قرامر الأقدري الفارسي على الصوفية الغرباء وتاريخه فيما أظن ٦١٧هـ .

ورباط الزرندي : وفي منتخب شفاء الغرام سماه رباط الدوري وقفه الشيخ نجيب الدين أبو الحسن بن محمد بن جبريل الزرندي وله أزيد من ثلاثمائة سنة وخلفه رباط كان موجوداً أثناء القرن السابع الهجري .

ورباط الشيخ أبي جعفر عمر بن عبد المجيد الميانشي : قرب رباط منده ومنه داران في شارع السويقة وله أكثر من مائتي سنة وثلاثين سنة .

رباط التميمي : واقفه الشيخ أبو العباس ويقال أبو جعفر بن أحمد بن إبراهيم بن عبد الملك بن مطرف التميمي المريني الفنجيري أوقفه على الفقراء والمتأهلين في ٦٢٠هـ ووقف عليه الحمّام الذي بأجياد . قال الفاسي وقد ظفرت بكتاب وقف الحمام ثم ذهب مني ويقع الرباط بالمروه على يسار الذاهب إليها .

رباط البانياس : على يسار الذاهب إلى الصفا وتاريخ وقفه ٦٢٥هـ وواقفه الأمير فخر الدين أبار بن عبد الله البانياسي على الفقراء المعروفين بالتدين والصلاح .

رباط الأمير إقبال الشرابي المستنصري : تحت مئذنة باب بني شيبه على يمين الداخل من باب السلام إلى المسجد الحرام وتاريخ عمارته سنة ٦٤١هـ وللشرابي عليه أوقاف كثيرة من الكتب والمياه وغير ذلك في وادي مر ونخلة .

رباط النسوة : خلف رباط الزرندي كان موقوفاً في القرن السابع ولعله الرباط الذي يعرف برباط الساحة والذي وقفه جماعة من النسوة منهن والدة الشيخ قطب الدين العسقلاني على الفقراء والغريبات المتدينات .

ورباط القزويني : بالجانب الشمالي كان موجوداً في القرن السابع وبابه عند باب السدة من خارج المسجد .

ورباط منده : وهو الحافظ أبي عبد الله منده ملاصق لزيادة دار الندوة وبابه على بابها الذي يخرج منه إلى السويقة ويعرف الآن — على حد قول الفاسي — يعرف بالبرهان الطبري وعلى بابه عند باب زيادة دار الندوة حجر مكتوب فيه أنه وقفه على القادمين من أصبهان أربعين يوماً وعلى سائر الناس عشرة أشهر وعشرين يوماً .

ورباط الشيخ أبي القاسم بن كلاله الطيبي : بالمسعي قرب رباط العباسي وتاريخه ٦٤٤هـ والدار المعروفة بدار الخيزران قرب الصفا مبدأ المسعى ولا أعرف واقفها ولا متى وقفت[٥٦] .

ومن الأماكن المأثورة التي عملها أهل الخير للمجتمع في مكة هي (**السبل – جمع سبيل**) وهو عمل متوارث في المجتمع المكي يستسقي منها الناس وكانت البرك والسبل تكلف كثيراً فهي تبنى من الحجارة والنورة ولأجل الثواب تهون الصعاب وخاصة للسبل والبرك أهمية كبيرة لأن مكة نادرة الماء ومناخها حار يتطلب مثل هذه السبل لعابر السبيل ولم تعد تلك البرك والسبل والمصانع بمكة فحسب بل وفي طريق مكة فقد اتخذ الخلفاء العباسيون كالمهدي المصانع والبرك في طريق الحج من بغداد إلى الحرمين للحجاج ويرتوي منها سكان البوادي أيضاً .

وهذه السبل كثيرة فقد ذكر الفاكهي قوله : ومكة في فجاجها وشعابها من باب المسجد إلى منى ونواحيها ومسجد التنعيم نحو مائة سقاية[٥٧] ومنها سبيل الزنجبيلي ويقال له سبيل أبي راشد لتجديده له ويقال له سبيل المكين لتجديده أيضاً وتاريخ عمارة

الزنجبيلي له ٦٢٠هـ كذا في حجر فيه وهي عمارة تجديد لأن الزنجبيلي توفى قبل ذلك على ما ذكر ابن شاكر الكتبي بسبع وثلاثين سنة[٥٨] .

وقد عنيت الملكة خاتون بنت الأمير مسعود ملك الدروب والأرض وما يلي بلاد الروم أن تعمل في طريق الحاج سقي الماء للسبيل وعينت لذلك نحو الثلاثين ناضحة ومثلها للزاد واستجلبت لما تختص من الكسوة والأزودة وغير ذلك نحو المائة بعير[٥٩] .

أما بيوت أهل مكة : فهي من حجارة سود ملس وبيض أيضاً وعلوها الأجر كثيرة الأجنحة من خشب الساج وهي طبقات مبيضة نظيفة حارة في الصيف إلا أن ليلها أطيب قد رفع الله عنهم مؤونة الدفء[٦٠] .

وبناء البلد على العموم بالحجر والجص وكل دار تشبه الحصن لأجل إحكامها . وبنى الأمير هاشم مدينة بظاهر مكة ما بين الثنية والمسفل تسمى **(مربعة الأمير)** فكان يسكن بها جنده وخدمه وحشمه وبقي البلد عامراً وخربت في دولة الأمير عيسى بن فليته وبقيت مكة خراب إلى دولة الأمير قتاده بن إدريس بن مطاعم بن عبد الكريم وجدد فيها آثار ومواضع شتى .

وأدار الأمير قتاده بن إدريس ٦٠٨هـ على مكة سوراً من الحجر والطين وذلك على رءوس الجبال وبطون الأودية وركب عليه خمسة أبواب وهي :

باب المعلى : وينفذ إلى عرفات .

وباب درب الثنية : وينفذ إلى مدينة الرسول ﷺ ويسمى باب جدة .

وباب العمرة .

وباب المسفلة : وينفذ إلى اليمن .

وباب الصغير : وينفـذ إلى الصفـا والمصافي والصحيفة وهـو وادٍ ليس على طريق[٦١] .

وأعتقد أن العقبة كان مكانها موقع الريع بين الشبيكة وحارة الباب سميت كذلك لأن باب السور كان فيها[٦٢] .

ولـمكة سور زمن المقتدر العباسي .

وأصلحت العقبة التي بني عليها سور باب الشبيكة من جهة المظفر صاحب أربل في ٦٠٧هـ ولعله الذي بنى السور الجديد الذي كان بأعلى مكة[٦٣] .

وبنى بعض خلفاء ووزراء وأمراء بني العباس القصور لهم في مكة المكرمة وفي طريق الحج ينزلونها وأعدوا فيها سائر ما يحتاجون إليه من الستور والأواني والفرش ومنهم السفاح والمنصور والمهدي والرشيد والمنتصر وكان صاحب السلطان يعين (متولي المنازل) ولا يسمح لأحد من الناس الدخول فيها ومنها :

دار جعفر بن يحيى البرمكي : وزير الرشيد وهي واقعة بفوهة أجياد الكبير عمرها جعفر بن يحيى بالحجر المنقوش والساج اشتراها جعفر بن يحيى من أم السايب بنت جميع الأموية بثمانين ألف دينار وكانت هذه الدار لأبي العاص بن الربيع بن عبد العزي بن عبد شمس زوج زينب بنت النبي ﷺ . وفيها ابتنى بزينب ابنة رسول الله ﷺ أهدتها إليها أمها خديجة بنت خويلد وفيها ولدت ابنته إمامة بنت زينب فلما أسلم وهاجر أخذ الدار بنو عمه مع ما أخذوا من رباع المهاجرين(٦٤) .

والدار البيضاء : التي تقع على المروه والتي أصبحت للعباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فقد بنيت بالجص ثم طليت به فكانت كلها بيضاء وجدر الدار الرقطاء إلى جنبها وإنما سميت الرقطاء لأنها بنيت من الآجر الأحمر والجص الأبيض فكانت رقطاء وكانت الدار البيضاء والدار الرقطاء لمعاوية ثم أقطعها للعباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس(٦٥) .

وفي مكة سبعة عشر (**حماماً**) ذكرها الفاكهي الذي عاش في القرن الثالث الهجري وبين مواقعها وأضاف الفاسي أن ليس منها الآن شيء معروف .

وبنى الجوار صاحب الموصل حماماً بمكة(٦٦) .

وذكر ابن جبير حمامين في مكة في القرن السادس الهجري . ويظن أنهما كانا منذ العهد الماضي حسب ما ذكره ناصر خسرو(٦٧) .

وفي مكة (**نوادي**) يعقدون فبها حلقات السير أو يقصون أساطير الأولين أو نوادر تلك القصص التي يمر بها الناس حينما يجولون في الآفاق فيجتمع في هذه النوادي حلقات من الكهول في أقبيتهم الفضفاضة وشبيبهم في ثيابهم الموردة أو المحمرة من أغلى أنواع الحرير المجلوب من البلاد المجاورة(٦٨) .

ومن نواديهم ومتنزهاتهم :

الليط : وهو في رأي بعض المؤرخين يقع أسفل مكة فيما يقرب من (بركة ماجن) ويقول الأستاذ رشدي ملحس وهو يحقق ما ذكره الأزرقي المتوفي في القرن الثالث الهجري أي في العصر العباسي الثاني : يرجح أن الليط يقع خلف القشلاق العسكري أي فيما يلي (جرول) الخلفية ولست أستبعد القولين فإن الوادي بعد بركة (ماجن) يتصل بالجادة التي تنتهي خلف القشلاق فلم لا يكون الليط عبارة عن امتداد من جرول الخلفية إلى أطراف (المسفلة) . وكانت في الليط (أقحوانة) أي عباد الشمس يجلس أهل مكة حولها في العشي وهم يلبسون الثياب المحمرة والموردة .

وشعب خم : ويتصل بالمسفلة اليوم وكان مزروعاً فيه عدة بساتين تتصل بالليط ثم بجرول .

ومنتزه حائط الحمام : بجوار المعلا وفيه نخيل ومزارع وبساتين تمتد إلى الخرمائية بقرب ما نسميه (بالمعابده) ثم تمضي إلى (المحصب) في الطريق المؤدي إلى (منىً) .

وفي المحصب دكة يجتمع المتنزهون بها أصيل كل يوم وهي تشرف على نخيل وبساتين .

وفي وادي (**فخ**) وما نسميه الشهداء لهم فيها بساتين .

وفي وادي (**طوي**)في امتداده من الحجون إلى ربع الكحل .

وبساتين غير ما ذكرنا في ضواحي مكة العليا إلى مزدلفة فعرفة[٦٩] .

وفي مجال (**الغناء**) في المجتمع المكي فقد اشتهر الحجاز في العصر الذي سبق ظهور الإسلام بالغناء والموسيقى قال الميداني في مجمع الأمثال : إن العرب تقول في أمثالها (ألحن من جرادتين) وهما قينتان لمعاوية بكر العمليقي سيد العمالقة الذين كانوا نازلين مكة في قديم الزمان واسم إحداهما وردة والأخرى جراد وقيل لهما جرادتان على التغليب ، وفي الأغاني لأبي فرج الأصفهاني أن الجرادتين كانتا لعبد الله بن جدعان تغنيان في الجاهلية بمكة ولما جاء الإسلام واستولت العرب على الممالك وصاروا إلى نضارة العيش وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا بالحجاز وصاروا موالي للعرب عنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للأصوات فلحنوا عليها

أشعارهم وظهر بالمدينة نشيط الفارسي وطويس وسائب حائر مولى عبد الله بن جعفر وأخذ عنهم معبد المغني وطبقته وابن سريح وتطور فن صناعة الغناء إلى أن كملت في أيام بني العباس عند إبراهيم بن المهدي وإبراهيم الموصلي وابنه إسحاق ببغداد(٧٠) .

وإن إبراهيم الموصلي وهو من أشهر المغنين في العصر العباسي أخذ فنه عن رجل من أهل الحجاز . وهجرة المغنين من الحجاز استدعته حاجتهم للتكسب ويلوح أن هبوط مستوى الثروات في مكة أدى إلى ارتحالهم أو ارتحال الفنانين من مغنين ولاعبين ومترفين وبقي في مكة حلقات العلم والزهد والتقشف وهنا بدأت هجرة معاكسة من العلماء إلى مكة فبنيت التكايا والربط لتكون مأوى لهم وظهر أثر ذلك واضحاً في العصر العباسي الأول(٧١) هكذا نرى تطور فن الغناء وبدايته بمكة قبل الإسلام ثم أثر الموالي حيث أخذ الأمويون كما أخذ العباسيون من بعدهم نظام مجالس الغناء من الفرس . وكان بعض الخلفاء يستمعون في أوقات فراغهم إلى قصائد الشعر ولم يلبث إلا أن حل الغناء محل الشعر . ويلاحظ أن أكثر المغنين والقيان في العصر الأموي هم من غير العرب لأن العرب برعوا في الشعر وخاصة في الغزل(٧٢) .

واشتهر الحجاز في الغناء والفكاهة واستمرت في بدء العصر العباسي فقد أخذ الحجاز يصدر إلى العراق

وحدثنا صاحب الأغاني أن أحمد بن صدقة كان أبوه حجازياً مغنياً قدم على الرشيد . وأن دنانير المغنية الشهيرة في العراق كان أصلها من المدينة وأن يحيى المكي أحد المغنين كان قدم مع الحجازيين الذين قدموا على المهدي في أول خلافته وابن جامع ويزيد صوراء جميعهم مكيون هجروا بلادهم إلى العراق ونقلوا معهم فنونهم(٧٣) . وذكر أن المهدي أمر في ١٥٩هـ بنفي كل من بمكة من المغنين ومنع قيانها من الغناء ومنع لعب الشطرنج وغيره من الأمور التي تجر اللهو والطرب وضعف الغناء لعدم تشجيع خلفاء العصر العباسي الأول له خاصة وأن مكة والمدينة كان فيهما المعارضة للحكم العباسي فقامت الثورات العلوية مما أدى إلى نتائج سيئة على أهل البلاد فانقطعت الأموال والعطاء وانخفض مستوى المعيشة للسكان فضعف الإقبال على الغناء(٧٤) إلا أن الرشيد شجع الغناء من الشعر المغنى فكان يجمع المغنين في زياراته للمدينة ويسمع لغنائهم ويصلهم بالأموال بعد أن يغنوا . ولما حج الرشيد أحضر أبا سعيد مولى قائد وقال له غني قصيدتك : (تقول إمامة لما رأت) فغناه وطرب لها الرشيد(٧٥) ونلاحظ تجاوب ابن جريج

في الميل إلى الشعر المغنى حينما مر به ابن تينون المغني فقد دعاه ابن جريج كما جاء عن داود المكي قال داود والتف عنده جماعة من المغنين(٧٦) .

وهكذا ساد الغناء كافة الطبقات في المجتمع المكي .

وكان بعض النابغين في الغناء يعلمون هذا الفن(٧٧) وقال ابن عيينة لجلسائه يوماً إني أرى جابرنا هذا السهمي (يعني ابن جامع) قد أثرى . فإنه يصير إلى الخليفة فيتغنى له قال فقد أخذت من الرشيد في بيتين غنيت بهما عشرة آلاف دينار(٧٨) .

ولكن يظهر لي أن ازدهار الفن في الحجاز أخذ يضعف ضعفاً بيناً في الدولة العباسية لأسباب منها خروج القسم الأكبر من أهل مكة والمدينة ضد العباسيين وفشلهم سياسياً مما أدى إلى حجب المال عنهم فوقعوا في الفقر، والفقر ولاشك يودي بالفن والفنانين .

ولما كان الغناء مظهر ترف وطرب فالفقر يحجزه .

وسبب آخر كانت الدولة الأموية تغدق المال على غير العرب لكيلا يفكرون بالسياسة وشئونها واتقاء شرهم .

أما العباسيون فالمال والإدارة والوزارة تحولت بأيدي غير العرب فقلما تنصب الأموال إلى جزيرة العرب والحجاز فضعف الفن وتحول إلى العراق حيث المال الكثير والترف .

الخلاصة أن العلم الديني استمر في مكة والمدينة لأن دوافعه الرغبة في الثواب وكلما زاد الفقر زاد طلاب العلم إخلاصاً ورغبة في العلم . أما فن الغناء والموسيقى فتحولا إلى أرض العراق حيث المال الكثير(٧٩) والواقع أن غزارة الأموال أدت إلى ازدهار الفن عند الخلفاء ومواليهم وهذا ما نراه في العصر العباسي ببغداد أكثر منه في مكة والمدينة(٨٠) . أما في عهد الفاطميين فقد كان أمراء مكة من الأشراف يتمثلون بالأبهة في مجالسهم ومواكبهم وحفلاتهم مما لم تعهده مكة من قبل فاتخذوا لهم جوقة موسيقية خاصة تردد أنغاماً خاصة أمام قصورهم يسمونها (النوبة) وابتدعوا المواكب التي تمشي بين أيديهم عند خروجهم(٨١) .

أما في حفلات الزواج فيسمع الغناء في مكة في مجالس النساء وخاصة في يوم (النقيعة) وهو يوم الإملاك أو عقد الزواج(٨٢) .

وفي ليلة عيد الفطر تنصب القباب وتضرب الدبادب إلى الصباح بمكة(٨٣) .

وكان أهل مكة يستخدمون البوقات والطبول والدبادب التي تقرع والتي شاهدها ابن جبير حين قدوم سيف الإسلام طقتكين أخ صلاح الدين الأيوبي من مصر[٨٤] .

ويصحب بعض أهل مكة معهم المغنين إلى البساتين المجاورة ومعهم آلات الطرب لولعهم بالغناء[٨٥] .

ومن الألعاب المسلية في الأعياد بمكة لعبة الكرك وكان لكل حارة من حارات مكة كرك تعرف بهم يجتمعون له ويلعبون في حارة ويذهب الناس ينظرون إليه في تلك المواضع إلى الثنية وإلى قيقعان وإلى أجياد وإلى المعلاة والمسفلة فكان ذلك من لعبهم يلعبون به في كل عيد فأقاموا على ذلك ثم ترك زماناً طويلاً بعد ٢١٠هـ ولا يلعبون به كما ذكر ذلك الفاكهي المتوفي في القرن الثالث الهجري[٨٦] .

واهتموا بالصيد وسباق الخيل واللعب بالكرة والصولجان والقلة والمقلاة ذكر ذلك في أيام بني أمية وهي في أيام العباسيين أيضاً .

كما يتسابق الرجال بالخيل في حفلات زواجهم[٨٧] .

واشتهر عن المهدي ولعه بالصيد فقد كانت وفاته وهو يطارد غزالاً دخل في كهف فلحق الجواد ودخل خلفه فدق رأس المهدي ومات .

ومما يذكر أن من الخلفاء العباسيين من كان يعتني بالناحية الصحية للحجاج وأهل مكة عنايتهم بقافلة الحج . ففي ٥٧٣هـ كانت قافلة الخليفة المستضيء التي أرسلها للحج بنحو ستمائة جمل أقام فيها رئيس الرؤساء نحو مائة جمل للمنقطعين وأخرج معه الأدوية ومن يطبب المرضى واصطحب معه جماعة من أهل الخير والعلم[٨٨] .

ويتكون المجتمع المكي بما يشبه الطبقات فهناك :

الأشراف : وهم الأمراء حكام مكة .

ثم التجار : وهم الأغلبية من سكان مكة وفيهم البزازون والعطارون وسوقهم عند باب بني شيبة والحناطون وغيرهم[٨٩] .

أما المزارعون فقليلون بسبب طبيعة أرضها الجبلية وندرة مياهها .

وأصحاب المهن والحرف والصناع وصناعتهم بسيطة وتتمثل في الصياغة والدباغة وصناعة أدوات الحرب والبناء والحياكة والنسيج والخياطة وغيرها[٩٠] .

ولأصحاب المهن ما يشبه النقابات ولكل له عصبيته وربما نشأت تلك العصبيات بين أصحاب المهن والحرف بسبب طائفي فقد وقعت عصبيات وقتال ٢٩٢هـ بين

الخياطين والجزارين بمكة قتل فيهــا سبعة عشــر رجلاً ثم تحاجــزوا إلى أن حج الناس[٩١] .

وكانت مكة تستقبل الصناع وشيوخ الصاغة وممن لهم معرفة بالصناعات من بغداد وسامراء فقد أرسل المتوكل إسحاق بن سلمة الصانع وكان لهم علم بالصناعات ليقوم بتحلية المقام بالذهب والفضة والرخام وآلات تشق الرخام فيشق كل لوح منها لوحين إلى مائة لوح[٩٢] .

أما (**دخل الفرد**) في مكة فيوضحه النص الذي أورده ابن بكار وفيه أن راتب الوالي ألف دينار في الشهر أما القاضي فراتبه مائة دينار يعطي منها عشرة دنانير لكاتبه أيام الواثق العباسي الذي تولى الخلافة ٢٢٧هـ وكانت وفاته ٢٣٢هـ . وهذا يدل على أن متوسط دخل الفرد وهو ما يكفيه للمعيشة عشرة دنانير شهرياً[٩٣] .

وكان في مكة في العهد العباسي (**جاليات**) عديدة من الترك والموالي الذين كانوا يتبعون ولاة بني العباس أحياناً وينضمون إلى الثوار أخرى . قال ابن جرير الطبري : كنت بمكة ٢٤٠هـ فرأيت خراسانياً ينادي : معاشر الحاج، من وجد همياناً فيه ألف دينار فرده على أضعف له الثواب . فقام شيخ من أهل مكة كبير من موالي جعفر بن محمد فقال له : يا خراساني بلدنا فقير أهله، شديد حاله، أيامه معدودة، ومواسمه منتظرة، لعله يقع في يد رجل مؤمن يرغب فيما تبذله لا يأخذه رجل ويرده عليك[٩٤] . هذا النص يدل على وجود الموالي للعباسيين كما وصف حال مكة في القرن الثالث الهجري .

وإلى جانب الترك كان هناك جاليات من الفرس والبربر وبعض الناس من بلاد العرب والمظنون أن أغلب هؤلاء كانوا من أصحاب التقوى الذين يفرون بدينهم بعيداً عن ثورات أشد في فارس والمغرب وبقاع الإسلام .

أو المتوكلون الذين يلذ لهم طيب عيش الصدقات والتكايا وليس في هؤلاء وأولئك من يتقن حرفة أو يزاول عملاً لهذا فترت حركة الصناعة في مكة في هذا العهد وكثر المحتاجون والمتسكعون[٩٥] وكان مستوى المعيشة في مكة لا يختلف عما هو عليه في المدينة من حيث سوء الحالة الاقتصادية نتيجة لموقف الحجاز مع العلويين ضد بني العباس مما أدى إلى قلة الوارد ونتيجة لانقطاع الميرة عن الحجاز واضطراب الأحوال السياسية مما أدى إلى تدهور التجارة ولكن بعض الخلفاء كالمهدي والرشيد أعطى

الأعطيات لأهل مكة وكان عطاء الرشيد لأهل مكة في سنة ١٨٦هـ ألف ألف دينار ومائتا ألف دينار وكان قد أعطى أهل مكة في هذه السنة عطاءين[٩٦].

إلا أن المعتصم لم يداوم على تقديم العطاء لأهل مكة فقال الوزير أحمد بن أبي داود للمعتصم يا أمير المؤمنين اجعل الأموال في أهل الحرمين فقد لقوا من غلاء السعر شدة ولكن الواثق قدم الأموال الكثيرة لأهل مكة[٩٧].

ويبدو أن كان في مكة الأشراف والعرب والعبيد وأهل مكة حين ورد أنه في سنة ٦٠٨هـ لما وثب باطني على أحد الأشراف وقتله ظناً أنه قتادة فنادى قتادة هؤلاء. وقصدوا الحاج بمنى ونزلوا عليهم.

ومن الموالي من كان عبداً ثم أعتق فأصبحوا أحراراً ولكنهم يحملون اسم أسيادهم وأولادهم من بعدهم كما يحملون اسم عساكر مولاهم وكان عليهم نصرتهم في الحروب.

ومن الموالي أيضا المسلمين من غير العرب. قال المقدسي وأكثر أهل جدة من الفرس إلا أن لغتهم عربية[٩٨].

واستعان بنو العباس بالموالي فولى المنصور مكة الهيثم العتكي سنة ١٤٥هـ وهو من أهل خراسان وعهد الرشيد إلى حماد البربري ولاية مكة. وسليمان بن بلال كان بربرياً وكان يفتي بالبلد ولعله يعني البلد الأمين (مكة)[٩٩].

واشتهر الموالي بمكة بالعلوم وخاصة علوم الدين والفقه فإن عطاء بن أبي رباح ومجاهد بن جبير وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار كلهم موالي[١٠٠].

واستكثر قتادة سنة ٦١٥هـ من المماليك وخافه العرب هناك وكان أول أمره حسن السيرة وأزال عن مكة المفسدين[١٠١].

وهنا ظهرت طبقة العبيد وكان أهل مكة في سالف الدهر يشترون العبيد وجملة زواج أهلها الجواري السود من الحبش والنوبة فرجالهم سمر[١٠٢] وبهم برص ولكن السودان كثير وعامتهم السمر ويغلب عليهم الدقة والهزال[١٠٣].

وكان في المدن سوق للرقيق فقد ذكر التاريخ مصادر الرق في الحجاز منذ العصر الجاهلي فكان في مكة عدد كبير من الأحابيش واستمر في العصر الأموي وزاد عدد الرقيق نظراً لتدفق عدد كبير من الأرقاء نتيجة للفتوح وزيادة الترف وخاصة الجواري في العصر العباسي إذ بيعت جارية إبراهيم بن قتيلة بخمسمائة دينار في سوق الرقيق وعمل بعضهم في حوانيت أسيادهم في الحرف كالحياكة والحدادة والصياغة وأحياناً بالتجارة[١٠٤]

والخدمة في البيوت واشترى المنصور رقيقاً من الأعراب وأعطاهم البعير والبعيرين وفرقهم في طلب محمد بن عبد الله النفس الزكية[١٠٥] وكان الرقيق أقل درجة من غيرهم في المجتمع .

ووصف ابن بطلان الذي عاش في النصف الأول من القرن الخامس الهجري وصف الرقيق كالهنديات والمكيات وفيما قال : إنهن لينات الأرساغ ألوانهن البيض المشرب بالسمرة قدودهن حسنة وأجسامهن ملتفة وثغورهن نقية باردة وشعورهن جعدة وعيونهن مراض فاترة وقد كان للرقيق رئيس أو أكثر وإن كان دورهم في تاريخ الحجاز السياسي وثوراتهم مما يدل على شعورهم بضرورة تحسين أحوالهم المعاشية والاجتماعية[١٠٦] .

ولعب العبيد دوراً في تاريخ مكة فقد أمر الحسين بن علي ١٦٩هـ في ثورته ضد العباسيين منادياً ينادي أيما عبد أتانا فهو حر فأتاه العبيد من مكة وانضموا لحركته ١٦٩هـ فانتهى الخبر إلى الهادي فأرسل إليه وهزمه وقتل[١٠٧] وهذا يدل على وجود العبيد في القرن الثاني الهجري في مكة وسوء حالهم وأنهم يرغبون في الحرية ويلبون نداءها . وفي سنة ٣٦٦هـ لما حجت جميلة بنت ناصر الدولة صاحب الموصل ومعها أخوها وفعلت من الخيرات بمكة ما لم يفعله أحد من الملوك فأعتقت ثلاثمائة عبد وأمة وسقت الناس كلهم بعرفة السويق والسكر وكست المجاورين وتصدقت ولم توقد بمكة مدة إقامتها إلا شمع العنبر إجلالاً للحرم الشريف[١٠٨] .

وفي سنة ٤١٨هـ وقعت فتنة بين أمير الحج العراقي وعبيد مكة كان الظفر فيها للأمير العراقي وكان العبيد قد كبسوا في مكة في بعض دورها ولكنه قتل من هؤلاء العبيد مقتلة عظيمة وهزمهم شر هزيمة[١٠٩] .

وأفسد العبيد حج ٥٥٧هـ بمنى فنفر عليهم بعض أصحاب الحاج فقتلوا منهم جماعة ورجع من سلم إلى مكة وجمعوا جمعاً وأغاروا على جمال الحاج وأخذوا قريباً من ألف جمل فنادى أمير الحاج في جنده فركبوا سلاحهم ووقع القتال بينهم فقتلت جماعة ونهب آخرون من الحاج وأهل مكة فرجع أمير الحاج بعد أن وقف بعرفة ولم يدخل مكة ورجع كثير من الحجاج رجاله لقلة الجمال لأن العبيد أخذوها ولقي الحجاج شدة من ذلك[١١٠] .

وفي ٥٧١هـ قام عبيد من مكة بقتل أولئك الذين هجموا على أموال تجار مكة[١١١] .

ووصف ابن جبير موكب أمير مكة في هلال كل شهر وذكر أن رجاله السودان بالحراب يطوفون أمامه وهو يطوف ويصلي(١١٢).

فالعبيد يكونون عدداً لا يستهان به في المجتمع المكي يستخدمهم ولاة مكة أحياناً لتحقيق أغراضهم السياسية أو قد يعبثون إذا وجدوا الفرصة سانحة لهم فينهبون ويقتلون فيجد الحجاج وأهل مكة منهم شراً كثيراً .

يلاحظ مما مر عن الحياة الاجتماعية بمكة في أواخر الدولة العباسية أن الطابع الديني كان يطغى على عادات المكيين وتقاليدهم حيث كانوا يخرجون في بعض المناسبات إلى التنعيم ويعودون إلى المسجد الحرام محرمين يطوفون وكانوا يتزاورون فيما بينهم ويستقبل أهل مكة كل شهر في احتفال وإن اهتموا بشهر رمضان ورجب والأعياد بصورة خاصة . حتى الزواج وأفراحه كان لها ارتباط بالمواسم الدينية وموسم الحج .

دكتور : علي أباحسين

الهوامش

١ – أحمد أمين، ضحى الإسلام ١٠٥/١-١٠٦ ط ٥ مصر ١٩٥٢م .

٢ – الأزرقي، ١٩٣/١ مكة ١٣٥٧هـ .

٣ – مرآة الحرمين ٦٣/١ .

٤ – المقدسي، أحسن التقاسيم ١٠٠، ط ٢، ليدن، ١٩٠٦م .

٥ – نفس المصدر، ١٠٥، ط ٢ .

٦ – ابن الجوزي، المنتظم، ٢٣٠/١٠ .

٧ – مرآة الحرمين، ٢٠٥/١ و شفاء الغرام، ٧٠/١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦٥، و ابن جبير، ص١١٥ .

٨ – ابن جبير، ص٧٠ .

٩ – ابن جبير، ص١٠٢-١٠٤ .

١٠ – ابن جبير، ص١٠٢ .

١١ – ابن بطوطة، تحفة النظار ١١٩-١٢٠ .

١٢ – ابن جبير، ص١٠٢-١٠٤ وابن بطوطة ١١٨، ١١٩، ١٢٠ .

١٣ – ابن بطوطة، ١١٨ .

١٤ – السباعي، ١٩٦/٢ بتصرف .

١٥ – ابن جبير ص١٠٢، ١٠٤ .

١٦ – ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص٦٥ .

١٧ – ابن المجاور، ص٩ .

١٨ – مرآة الحرمين، ٢٠٣/١-٢٠٥ سنة ١٩٢٥م .

١٩ – ابن المجاور، ص٦ و٧ .

٢٠ – ابن المجاور، ص٨٦ .

٢١ – حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ٥٤٦/١ و٥٤٧ .

٢٢ — مرآة الحرمين، ١/٢٠٣ و٢٠٥ .

٢٣ — ابن بطوطة، ١١٨ .

٢٤ — ابن بكار، جمهرة نسب قريش، ١/٣٠٤ و٣٠٦ . والأصفهاني، محاضرات الأدباء، ٢/٦١٩ . والأصبهاني، حلية الأولياء، ٢/٢٧٠ . والطبري، ٩/١٨٢ . وابن قتيبة، عيون الأخبار، ٣/٢٠٥ . ومتز، ٢/١٨٤، ط٢ ١٩٤٨م . والمسعودي، مروج، ٢/٨٤ .

٢٥ — المسعودي، مروج الذهب، ٢/٨٤ . ومتز، ٢/١٨٤ .

٢٦ — أحسن التقاسيم، ص٩٥، ليدن ١٩٠٦م .

٢٧ — ابن المجاور، ص٥ و٦ .

٢٨ — ابن بطوطة، ٧٨ . وحسن إبراهيم حسن، تاريخ، ١/٥٤٦ و٥٤٧ .

٢٩ — مرآة الحرمين، ١/٢٠٤ .

٣٠ — أحسن التقاسيم، ٩٥ و٩٩ .

٣١ — تاريخ المستبصر، ص٥ و٦ .

٣٢ — الكندي، الولاة وكتاب القضاة، ٣٧٨ . ومتز، ١/٣٧٣ . والسيوطي، ٢٦٢ . وحسن إبراهيم، النظم الإسلامية، ٢٨٣، ط ٣ .

٣٣ — ابن عساكر، التاريخ الكبير، ٢/٤٣٤ . والصباغ، ١٣٨ .

٣٤ — مرآة الحرمين، ١/٢٠٣-٢٠٥ .

٣٥ — مالك، المدونة الكبرى، ٢/٧٨ . والسباعي، تاريخ مكة، ١/١٩٧، ط ٣ مكة، ١٣٨٧هـ .

٣٦ — السباعي، ١/١٦٣ .

٣٧ — ابن بدران، تهذيب تاريخ ابن عساكر، ٦/٣٢٩ .

٣٨ — مالك، المدونة الكبرى، ٢/٧٨ . والصباغ، ص١٤٠ . والوشاء الموشى، ص١٢٥ .

٣٩ — الأغاني، ٦/١٧١ و١٩١ . وابن سعد، الطبقات الكبرى، ٥/٤٧٩ .

٤٠ — شفاء الغرام، ١/٣٣٠-٣٣٦ . والعقد الثمين، ٩٩-١٠٢ . وتحصيل المرام، ١٩٢-١٩٥، (مخطوط) .

٤١ — آل عمران، آية ٢٠٠ .

٤٢ — الفيروز ابادي، القاموس المحيط ٢/ ٣٦٠ . والدكتور خليل سعيد . الربط الإسلامية، ص٣-٦، بغداد ١٩٧٣م . والفيومي، المصباح المنير، ١/٣٢٠ . والزبيدي، تاج العروس في جواهر القاموس، ٥/١٤٠، ط ١، مصر ١٣٠١هـ .

٤٣ — العقد الثمين، ٩٩-١٠٢ . وشفاء، ٣٣٦/١ . وتحصيل المرام، ١٩٥ .

٤٤ — الأزرقي، ٦٩/١، الماجدية بمكة . وتحصيل المرام، ١٥٥ . وشفاء الغرام، ٣٣٠/١، مصر ١٩٥٦م . والعقد الثمين، ١٩٩/١ و١٢٠، القاهرة ١٣٨٥هـ .

٤٥ — تحصيل المرام، ١٩٢-١٩٧ . والعقد الثمين، ٩٩-١٠٢ . وشفاء، آ/٣٣٠-٣٣٦ .

٤٦ — شفاء الغرام، ٣٣١/١، مصر ١٩٥٦م .

٤٧ — العقد الثمين، ٩٩-١٠٢ . وشفاء، ٣٤٢/١ . وتحصيل المرام، ١٩٢-١٩٧ .

٤٨ — ابن ظهيرة، ٢١٣ . وشفاء الغـــرام، ١١٩/١-١٢٠، دار إحيـــاء الكتب المصريـــة، القاهرة ١٩٥٦م . وتحصيل المرام، ١٩٢-١٩٥، مخطوط، الباب الأربعين .

٤٩ — العقد الثمين، ٩٦-١٠٢. وشفاء، ٣٣٠/١ و٣٣٦ و٣٤٢ .

٥٠ — شفاء الغرام، ٣٣١/١، القاهرة ١٩٥٦م .

٥١ — الأزرقي، ١٢١/١، الماجدية، مكة ١٣٥٢هـ . والعقد الثمين ١١٩/١-١٢٠ . وشفـــاء الغرام، ٣٣٣/١، مصر ١٩٥٦م . ودحلان، ص٣٨ .

٥٢ — دحلان، ٣٨ . والأزرقي، ١٢١/١ . والعقد، ١١٩/١-١٢٠ . وشفاء الغرام، ٣٣١/١ .

٥٣ — شفاء الغرام، ٣٣١/١، مصر ١٩٥٦م .

٥٤ — شفاء الغرام، ٣٣٦/١ .

٥٥ — دحلان، ٣٨ . وشفاء الغرام، ٣٣١/١ و٣٣٢ و٣٣٤ . وتحصيل المرام، ١٩٢-١٩٥ . والعقد الثمين، ٩٩-١٠٢ .

٥٦ — العقد الثمين، ٩٩-١٠٢ . وشفاء الغرام، ٣٣١/١-٣٤٢، مصر ١٩٥٦م . ودحلان، ص٣٨ .

٥٧ — شفاء الغرام، ٣٣٩/١، مصر ١٩٥٦م .

٥٨ — شفاء الغرام، ٣٣٨/١، مصر ١٩٥٦م .

٥٩ — المقريزي، الذهب المسبوك، ١٨-١٩ و٣٨-٣٩ . وشفاء الغرام، ٣٩٩/١ . وابن جبير، ١٦١ .

٦٠ — المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٧١، ليدن ١٩٠٦م .

٦١ — ابن المجاور، ص٧ .

٦٢ — السباعي، ٢٢٢/١، ط ٢ .

٦٣ — الشفاء، ١٣/١، مصر ١٩٥٦م .

٦٤ — سبائك الذهب، ١٨-١٩ . و٣٨-٣٩ . والأزرقي، ١٩٦/٢، الماجدية ١٣٥٧هـ .

٦٥ — الأزرقي، ١٩١/٢، الماجدية، ١٣٥٧هـ .

٦٦ — شفاء الغرام، ٢٠/١، مصر ١٩٥٦م .

٦٧ — ابن جبير، ص٩٢ و١٠٢ .

٦٨ — السباعي، ٣٨/١، ط١٣٨/٢ بتصرف .

٦٩ — السباعي، ٣١/١-٣٢ .

٧٠ — نوفل، نعمة الله جرجيس بن نوفل الطرابلسي، صناجة العرب ص٣٧٩، بيروت بلا ت .

٧١ — السباعي ١٣٤/١-١٣٦ .

٧٢ — حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ٣٣٢/١ و٣٣٣ .

٧٣ — السباعي، ١٣٤/١ و ١٣٦ .

٧٤ — نجله . بلاد الحجاز، ص١٤٥-١٤٦ . وابن فهد، أتحاف (مخطوط)، ورقة ٤١٤ .

٧٥ — الأصفهاني، الأغاني، ٣٤١/٤، طبع دار الكتب المصرية بلا ت .

٧٦ — الأغاني، ١٦/٦ .

٧٧ — السبكي، طبقات الشافعية، ٢٤١/١ .

٧٨ — الأغاني، ٢٣/٦ و٢٩٥ . والمبرد الكامل، ٢٥٩/٢ ونجله ١٥٠ .

٧٩ — أحمد أمين، ضحى الإسلام، ٧٦/٢، ط ٣، القاهرة ١٩٥٢م .

٨٠ — حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ٥٤٦/١ و٥٤٧ .

٨١ — السباعي، ١٩٦/٢ .

٨٢ — حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ٥٤٦/١ و٥٤٧ .

٨٣ — المقدسي، أحسن التقاسيم، ١٠٠ ليدن ١٩٠٦م .

٨٤ — ابن جبير، ص١٢٦ .

٨٥ — مرآة الحرمين، ٦٣/١ .

٨٦ — الفاكهي، تاريخ مكة المشرفة، ١١-١٢ (مخطوط) . والمنتقى في أخبار أم القرى، ص١١ .

٨٧ — حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ٥٤٦/١ و ٥٤٩ بتصرف .

٨٨ — ابن الجوزي، المنتظم، ٢٧٣/١٠ .

٨٩ — ابن جبير، ص٨٥ .

٩٠ — طلس، تاريخ الأمة العربية، عصر الانطلاق، ١٦١/٢-١٦٤، بيروت بتصرف .

٩١ — المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٠٢، ط٢ ليدن ١٩٠٦م . والطبري، ٥٢٩/٩ . وابن الأثير ٣٠٦/٧ .

٩٢ — الأزرقي، ١/٢٠٤ و٢٠٥، مكة ١٩٥٧م . والسنجاري، ٢٣٧/١ .
٩٣ — ابن بكار، جمهرة نسب قريش، ١٣٠/١ و١٣٢ و٣٤٧-٤٠٣ . واليعقوبي، ٢١٦/٣ .
٩٤ — ابن فهد، إتحاف الورى، ٣٥٢/١ (مخطوط) .
٩٥ — السباعي، ١٥٩/١-١٦٠ .
٩٦ — ابن بكار، جمهرة نسب قريش، ١١٠/١ و ١٣٢ .
٩٧ — اليعقوبي، ٢١٦/٣ . والسكري، المحبر، ص٣٨ . ونجله ١٣٤ .
٩٨ — المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٩٦ .
٩٩ — ابن سعد، الطبقات، ٤٢٠/٥ .
١٠٠ — ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٤١٥/٣ .
١٠١ — ابن الأثير، ٤٠١/١٢ .
١٠٢ — ابن المجاور، ص٥-٧ .
١٠٣ — أحسن التقاسيم، ص٩٥، ليدن ١٩٠٦م .
١٠٤ — وكيع، محمد بن خلف بن حيان، أخبار القضاة، ١٩٥/١، ونجله ١١٩ . ومالك بن أنس، المدونة الكبرى، ٢٤/٩ و١٢٤/٤، ونجله ١٢٠ .
١٠٥ — الطبري، ١٨١/٩ .
١٠٦ — متز، ص٢٢٨ و٢٣٠، ط٢ . والطبري، تاريخ الرسل، ٢٣٧/٩ .
١٠٧ — ابن الأثير، ٩٠/٦ .
١٠٨ — السنجاري، ٢٤٦/١ وما بعدها .
١٠٩ — ابن كثير، ١١٣/١٢ .
١١٠ — ابن الأثير، ٢٨٨/١١ . وابن الجوزي، المنتظم، ٢٠٥/١٠ .
١١١ — المنتظم، ٢٦٠/١٠ .
١١٢ — ابن جبير، ص٧٤ .